ان اصبح رئيس المنظمة الصهيونية · ويتوقف جريس في هذا المجال عند مساعي رائد الصهيونية **لاقامة دولة يهودية في اي مكان يمكن أن تتم فيه** · وابرز مساعيه لدى الحكومة البريطانية لحملها على منح منظمته امتيازا لتوطين اليهود في العريش وشبه جزيرة سيناء وفي قبرص ايضا ، ثم في اوغندا بعد ذلك حيث قدم بنفسه عرض الحكومة البريطانية لاقامة استيطان يهودي يتمتع بحكم محلي في افريقيا امام المؤتمر الصهيوني السادس عام ١٩٠٣ ·

وفي الفصل الرابع يتحدث الكاتب بتفصيل شديد عن الهجرة الثانية (١٩٠٤ ـ ١٩١٤) التي ارست عمليا اسس ، النظام الصهيوني في فلسطين · الا ان ما يستوقف القارىء في معرض تحليل الكاتب للخلفيات الفكرية لاصحاب تلك الهجرة وتنظيماتها الحزبية التي وفدت اساسا من روسيا القيصرية ، ما ذكره حول أسباب نشوء التنظيمات اليهودية الاشتراكية في روسيا وغيرها · فقد قال جريس ان احد عوامل نشوء تلك التنظيمات « اتخاذ اكثر من فئة اشتراكية موقفا سلبيا في حينه من اليهودية واليهود » · وابرز في هذا الخصوص اراء كارل ماركس التي وردت في مقالته « حول المسألة اليهودية » عام ١٨٤٣ · وأضاف قائلا ان تلك المواقف والاراء ادت في نهاية الامر الى « تقوية الصهيونية وصقلها » ·

وبالرغم مما في هذا الاستخلاص من غرابة ـ كما يعترف الكاتب نفسه ـ فهو حري بالمناقشة الجدية ، باعتبار ان النفس الذي ورد في سياق هذا الاستخلاص غير معاد للشيوعية وليس موظفا في خدمة التنظيرات الرجعية السائدة على هذا الصعيد ·

كما يرد مرة اخرى ، استخلاص اخر في هذا المجال ، عند عرض الكاتب لنشأة تنظيم « الاتحاد العام للعمال اليهود في روسيا وبولونيا » المعروف باسم البوند وعلاقاته بالحزب الاشتراكي الديمقراطي (البلاشفة) · اذ يعتقد جريس ان البوند كان منظمة يهودية معادية للصهيونية وان افكاره وحلوله المقترحة لحل المسألة اليهودية في روسيا كانت ستقوض الحركة الصهيونية فيما لو لم يتعرض البوند الى التصفية النهائية على يد لينين بعد نجاح ثورة اكتوبر الاشتراكية عام ١٩١٧ · ويكر جريس في هذا المجال ان الاتحاد السوفياتي عاد واعترف في عهد ستالين باليهود القاطنين فيه كاحدى القوميات المستقلة المتساوية في الحقوق والواجبات مع القوميات الاخرى · اي كما كان ينادي به البوند سابقا ·

ومن الواضح ان هذا التذكير لم يسعف استخلاصات جريس الاخيرة هذه· اذ نرى ان الحقوق التي منحها الاتحاد السوفياتي لليهود واعترافه بهم كقومية لم يحل المشكلة ولم يحد من نشاط وتصاعد الحركة الصهيونية التي عادت بعد سنوات طويلة تطل برأسها ، حتى داخل الاتحاد السوفياتي · وان كنا نعترف بان ذلك كله يتم حاليا بتأثير الدعاية الغربية المعادية للاتحاد السوفياتي وليس بفعل اضطهاد او تمييز في المعاملة والحقوق بين المواطنين السوفيات ·

بعد ذلك كله ، يعرض الكاتب لتأثيرات تلك الافكار والتجارب « الثورية » التي خاضها المهاجرون اليهود في روسيا على احزابهم وتنظيماتهم وتجاربهم السياسية في فلسطين · ويؤكد في هذا الخصوص ان حزب « بوعالي تسيون » او « عمال